

الدولة الفارسية قبل الإسلام
الكاتب : راغب السرجاني
التاريخ : ٢٢ أغسطس ٢٠١٥ م
المشاهدات : 11591



كان الوضع في الدولة الفارسية قبل الإسلام يمثل مأساة حضارية بكل المقاييس في كل الجوانب الأخلاقية، والاجتماعية، والدينية، والسياسية، والعسكرية على السواء.

المجتمع الفارسي:

فقد كان الشعب في المجتمع الفارسي يخضع لنظام شديد الطبقيّة، وفيه مهانة كبيرة للإنسانية، فكان المجتمع مقسمًا إلى سبع طبقات أدناها عامة الشعب، وهم غالب سكان فارس، ومنهم العمال والفلاحون والجنود والعبيد، وهؤلاء ليس لهم حقوق بالمرّة.

وكان بين طبقات المجتمع هوة واسعة لا يقوم عليها جسر، ولا تصل بينها صلة [١]، وكانت الحكومة تحظر على العامة أن يشتري أحد منهم عقارًا من أمير أو كبير، وكان من قواعد السياسة الساسانية [٢] أن يقنع كل واحد بمركزه الذي منحه نَسَبُهُ، ولا يستشرف لما فوقه، ولم يكن لأحد أن يتخذ حرفة غير الحرفة التي خلقه الله لها - في زعمهم، وكان ملوك إيران - أو فارس - لا يؤنون وظيفًا من وظائفهم، وكان العامة كذلك طبقات متميزة بعضها عن بعض تميزًا واضحًا، وكان لكل واحد مركز محدد في المجتمع [٣].

وكان في هذا التفاوت بين طبقات الأمة امتهان للإنسانية يظهر جليًا في مجالس الأمراء والأشراف؛ حيث يقوم الناس على رءوس الأمراء كأنهم جماد لا حراك بهم، وقد أكبر ذلك وأنكره المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، رسول المسلمين إلى الفرس أثناء فتوح فارس، ويتبين مما روى الطبري ما وصل إليه الفرس من الاستكانة والخضوع لسادتهم جريًا على عاداتهم.

قال: عن أبي عثمان النهدي قال: "لما جاء المغيرة إلى القنطرة فعبرها إلى أهل فارس أجلسوه واستأذنوا رستم في إجازته، ولم يغيروا شيئًا من شارتهم تقوية لتهاونهم، فأقبل المغيرة بن شعبة والقوم في زيهم، عليهم التيجان والثياب المنسوجة بالذهب، وبُسطهم على غلوة [٤]، ولا يصل إلى صاحبهم حتى يمشي عليها غلوة، وأقبل المغيرة وله أربع صفائر يمشي حتى جلس معه على سريره ووسادته، فوثبوا عليه فترثروه وأنزلوه ومغثوه [٥]، فقال: كانت تبلغنا عنكم الأحلام ولا أرى قومًا أسفه منكم، إنا معشر العرب سواء، لا يستعبد بعضنا بعضًا! إلا أن

يكون محاربًا لصاحبه، فظننتُ أنكم تواسون قومكم كما نتواسي، وكان أحسن من الذي صنعتم أن تخبروني أن بعضكم أرباب بعض، وأن هذا الأمر لا يستقيم فيكم فلا نصنع، ولم آتكم ولكن دعوتوموني. اليوم علمتُ أن أمركم مضمحل [٦]، وأنكم مغلوبون، وأن مَلِكًا لا يقوم على هذه السيرة، ولا على هذه العقول" [٧].

الجانب الديني في الدولة الفارسية:

وعلى الرغم من التقدم الحضاري والعسكري الذي وصلت إليه الدولة الساسانية -وهو الأمر الذي توازنًا إقليميًا مع الإمبراطورية الرومانية- فإن الوضع من الناحية الدينية كان متعسفًا لأقصى درجة.

لقد اتخذت الدولة الساسانية منذ بداياتها الزرادشتية [٨] دينًا رسميًا لها، وهذا الدين قائم على عبادة النار، وتقسيم العالم إلى عالم للظلمة وآخر للنور، وقال: إن نور الله يسطع في كل ما يشرق ويلتهب في الكون، وأمر بالاتجاه إلى جهة الشمس والنار ساعة الصلاة؛ لأن النور -في زعمه- رمز للإله، وأمر بعدم تدنيس العناصر الأربعة؛ وهي: النار والهواء والتراب والماء، ثم جاء من بعده علماء سنُّوا للزرادشتيين شرائع مختلفة، فحرّموا عليهم الاشتغال بالأشياء التي تستلزم النار، فافتصروا في أعمالهم على الفلاحة والتجارة، ومن هذا التمجيد للنار واتخاذها قبلة في العبادات تدرجُ الناس إلى عبادتها، حتى صاروا يعبدونها عينًا، وبينون لها هياكل ومعابد، وانقرضت كل عقيدة وديانة غير عبادة النار، وجُهلّت الحقيقة، ونسي التاريخ [٩].

ولما كانت النار لا توجي إلى عبّادها بشرية ولا ترسل رسولا، ولا تتدخل في شئون حياتهم، ولا تعاقب العصاة والمجرمين، أصبحت الديانة عند المجوس عبارة عن طقوس وتقاليد يؤدونها في أمكنة خاصة، وفي ساعات معينة، أما في خارج المعابد، وفي دورهم ودوائر حكمهم وتصرفهم، وفي السياسة والاجتماع، فكانوا يسيرون على هواهم، وما تملي عليهم نفوسهم، أو ما يؤدي إليه تفكيرهم، أو ما توجي به مصالحهم ومنافعهم، شأن المشركين في كل عصر ومصر [١٠].

وعندما صار الأمر هكذا يُباح فيه كل شيء لأي أحد؛ أصبح أساس الأخلاق متزعزعا مضطربا، فصارت المحرمات النسبية -التي تواضعت على حرمتها ومقتها طبائع أهل الأقاليم المعتدلة- موضع خلافٍ ونقاش، ويذكر ول ديورانت في قصة الحضارة أن الأخ كان يتزوج أخته، والأب ابنته، والأم ولدها [١١]، حتى إن يزدجرد الثاني الذي حكم في أواخر القرن الخامس الميلادي تزوج ابنته ثم قتلها [١٢]، وإن بهرام جوبين الذي تملك في القرن السادس كان متزوجًا بأخته [١٣]. ولم يكن هذا الزواج يُعدُّ معصية عند الإيرانيين، بل كان عملاً صالحًا يتقربون به إلى الله، ولعلَّ الرحالة الصيني (هوثن سوثنج [١٤]) أشار إلى هذا الزواج بقوله: "إن الإيرانيين يتزوجون من غير استثناء" [١٥].

ثم ظهر ماني [١٦] في القرن الثالث الميلادي، فدعا إلى حياة العزوبة لحسم مادة الفساد والشر من العالم، فحرّم النكاح استعجالاً للفناء، وانتصاراً للنور على الظلمة -كما يدعي- بقطع النسل، ثم قتله بهرام [١٧] سنة ٢٧٦م قائلاً له: أنت الذي تقول بتحريم النكاح ليستعجل فناء العالم ورجوع كل شكل إلى شكله وأن ذلك حق واجب.. فمن الحقّ الواجب أن يعجل لك هذا الخلاص الذي تدعو إليه وتُعان على إبطال هذا الامتزاز المذموم [١٨]. ولكن تعاليمه لم تمت بموته، بل عاشت إلى ما بعد الفتح الإسلامي [١٩].

ثم حدث انقلاب أخلاقي جديد أشدُّ فساداً من انحرافات ماني؛ حيث ظهر مزدك [٢٠] الذي وُلِدَ ٤٨٧م، فأعلن أن الناس وُلِدوا سواء لا فرق بينهم؛ فينبغي أن يعيشوا سواء لا فرق بينهم، ولما كان المال والنساء مما حرصت النفوس على حفظه وحرصته كان ذلك عند مزدك أهم ما تجب فيه المساواة والاشتراك. قال عبد القاهر البغدادي

[٢١]: "المزدكية الذين استباحوا المحرمات وزعموا أن الناس شركاء في الأموال والنساء، ودامت فتنة هؤلاء إلى أن قتلهم أنوشروان في زمانه" [٢٢].

وقال الطبري: "افترض السفلة ذلك واغتنموا، وكاتفوا مزدك وأصحابه وشايعوهم، فابتلي الناس بهم وقوي أمرهم، حتى كانوا يدخلون على الرجل في داره فيغلبونه على منزله ونسائه وأمواله لا يستطيع الامتناع منهم، وحملوا قباذ [٢٣] على تزيين ذلك وتوعدوه بخلعه -أي إن لم يفعل- فلم يلبثوا إلا قليلاً حتى صاروا لا يعرف الرجل ولده، ولا المولود أباه، ولا يملك شيئاً مما يتسع به" [٢٤].

هذا الوضع دفع كسرى قباذ إلى أن يناصر هذه الدعوة الفاسدة، بل ينشط في نشرها وتأييدها، حتى انغمست إيران بتأثيرها في الفوضى الخلقية وطغيان الشهوات.

الجانب العسكري في الدولة الفارسية:

أما على الجانب العسكري؛ فقد كانت قوة الفرس جنوداً قائمة على الخيالة والرماة، وكانت طريقتهم في القتال أن يمطروا العدو سهاماً، ثم يجترفوه بجملة من الفرسان في التوقيت الملائم [٢٥]، وكان لدى الساسانيين فرقة من عشرة آلاف من الفرسان المختارين (فرقة الخالدين)، وفرقة أخرى من الفدائيين تمتاز بالجرأة وتحدي الموت، كما كان الفرس يستخدمون الأفيال في القتال، وكانت الفيلة تتخذ مكانها خلف الفرسان، وكانت أصواتها ورائحتها ومناظرها غير المألوفة لأعدائهم تلقي الرعب فيهم وفي خيلهم [٢٦].

وقد بلغ جيش الفرس بقيادة رستم الذي واجه المسلمين في القادسية مائتي ألف مقاتل [٢٧]؛ فقد كانت لديهم أعداد كثيرة يُلقونها في الحروب بلا حساب.

وشهدت الإمبراطورية الفارسية تفرقة في المعاملة لرعاياها تبعاً لدينهم، وكان أول اضطهاد حقيقي وقع على نصارى إيران قد بدأ منذ عام ٣٣٩م حتى وفاة سابور الثاني [٢٨] عام ٣٧٩م، وكان ذلك الاضطهاد في ولايات الشمال الشرقي، وفي المناطق المتاخمة للإمبراطورية الرومانية، وقدّر بعض المؤرخين ضحايا اضطهاد سابور بستة عشر ألفاً، وهم الذين عُرفت أسماءهم، وكذلك لم يكن أردشير الثاني [٢٩] خليفة سابور مُحبباً للنصارى؛ لذلك امتدّ اضطهاد الساسانيين لنصارى إيران مدةً قرنين متتاليين [٣٠].

وعلى الرغم من الهدوء النسبي بين نصارى إيران وبين خلفاء أردشير الثاني، فإن الأمور قد عادت إلى سابق عهدها في أواخر عهد يزيدجرد الأول [٣١] (ت ٤٤٢م) الذي عيّن (مهر نرسي) - عدو النصارى الأول في إيران - رئيساً للوزراء، وما كاد بهرام الخامس [٣٢] يعتلي العرش حتى بدأ في اضطهادٍ ممنهجٍ ومنظّمٍ لنصارى إيران؛ ممّا أدّى إلى فرار النصارى المجاورين للعرب إلى الأراضي البيزنطية، وقد أثار (مهر نرسي) القبائل العربية الموالية للفرس ضد النصارى، فقتل عدد لا يُحصى منهم.

بل نال الاضطهاد الفارسي بعض النبلاء الذين دانوا بالنصرانية، وأفراداً من الأسرة المالكة مثل (بيير جشنسب) ابن أخي سابور الثاني، والذي دخل النصرانية وسمّى نفسه بالاسم السرياني (مارسابها) [٣٣].

العلاقة بين الدولتين الرومانية والفارسية:

كانت الدولتان الفارسية والرومانية في هذه الفترة فرسي رهان يتسابقان على زعامة العالم، وفي إطار هذا التنافس حدثت سلسلة من الحروب الدامية بينهما، وقد راح ضحية هذه الحروب الآلاف من أبناء الدولتين من دون جريرة؛

فقد كان الجنود عبيدًا ليس أمامهم إلا الانصياع لأوامر ورغبات الحاكم الجامحة الطامعة، ولم تكن هناك أي رسالة للحاكم أو الجيش اللهم توسيع مساحة الأرض المملوكة!

ولعلُّ من أشهر الحروب والمعارك التي خاضتها الدولتان في هذه الفترة المعارك التالية:

- معركة دارا

التي وقعت في عام ٥٣٠م، التي كانت قبل مولد الرسول صلى الله عليه وسلم بأربعين عامًا تقريبًا، وفيها تقابلت الجيوش الفارسية والبيزنطية في شمال سوريا، وبعد قتال مرير استطاع البيزنطيون هزيمة الفرس، وكسب هذه الجولة من الجولات الحربية الدامية التي كانت مشتعلة بين الدولتين [٣٤].

- معركة مالاطيا

التي وقعت في عام ٥٧٤م بعد مولد الرسول صلى الله عليه وسلم بثلاثة أعوام، وتعتبر هذه المعركة من أكبر معارك القرن السادس الميلادي، وفيها اصطدمت جيوش الفرس بقيادة أنوشروان مع الجموع الكبيرة التي حشدتها البيزنطيون ليدافعوا عن بيزنطة، وفي هذه المعركة -أيضًا- انهزم الفرس، وفر أنوشروان من المعركة [٣٥].

- معركة أركسامون

التي وقعت في عام ٦٠٥م في منطقة تقع بين أورفه والنزيب شمال سوريا، والتي التقت فيها جيوش الفرس بقيادة كسرى الثاني بارويز بالجيش البيزنطي، فقد استطاع الفرس أن يُلحقوا بالروم هزيمة كبيرة، ولكنها لم تكن حاسمة [٣٦].

فهذه أمثلة لبعض الحروب التي وقعت بين الفرس والروم بحثًا عن الزعامة والاستئثار بثروات العالم.

والملاحظ في كل هذه الحروب أنه لم يكن هناك اهتمام بالمرّة براحة أو أمان الجنود؛ بل اعتاد الفرس أن يربطوا جنودهم في المعارك بالسلاسل، ليمنعوهم من الفرار! وقد شاهد المسلمون ذلك بأعينهم في أكثر من موقعة مع الفرس، لعلُّ من أشهرها موقعة الأبله [٣٧]، التي كان المسلمون فيها تحت قيادة البطل الإسلامي الفدّ خالد بن الوليد رضي الله عنه، وفيها انتصر المسلمون، وعُرِفَت الموقعة باسم "ذات السلاسل" [٣٨]؛ لأن الفرس كانوا يربطون كل عشرة من الجنود في سلسلة؛ لكي لا يفرّوا [٣٩]! وفعل الروم ذلك أيضًا [٤٠].

[١] أرثر كريستنسن: إيران في عهد الساسانيين ص. ٥٩٠.

[٢] الإمبراطورية الساسانية: هي إمبراطورية فارسية أسسها أردشير بن بابك بن ساسان، وإلى جده ساسان نُسبت، وقد حكم أردشير في الفترة (٢٢٦ - ٢٤١م)، وفي عهده أصبحت الديانة الزرادشتية هي دين الإمبراطورية الساسانية الرسمي.

[٣] أرثر كريستنسن: إيران في عهد الساسانيين ص ٤١٨-٤٢٢ بتصرف.

[٤] الغلوة: مجاوزة الحد، والغلوة: قدر زمنية بسهم وقد تستعمل الغلوة في سباق الخيل والغلوة الغاية مقدار زمنية، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة (غلو) ١٥/٣١، والمعنى أنهم لشدة بذخهم يفرشون بسطهم الثمينة لمسافة طويلة.

[٥] الترترة تحريك الشيء، والمغث العرك في المصارعة، ومغثوا عرض فلان أي شأنه ومضغوه، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة (ترتر) ٤/٨٩، ومادة (مغث) ٢/١٩٠، والمعنى أنهم أساءوا إليه القول ودفعوه وكادوا يتعاركون معه لما رأوا من جرأته عليهم ومعاملته قاتدهم بما لم يعتادوه.

[٦] اضمحل: ضعف وانحل شيئًا فشيئًا حتى تلاشى ويُقال اضمحل السحاب انقشع.

[٧] الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٣/٥٢٢، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٢/٢٩٩، وتاريخ ابن خلدون ٢/٥٣٠.

[٨] الزرادشتية: نسبة إلى زرادشت وهو فيلسوف إيراني (عاش ما بين ١٥٠٠-١٦٠٠ ق. م) مؤسس الديانة الزرادشتية، وهي ديانة مثنوية؛ أي أن أصحابها يعتقدون بوجود إلهين؛ أحدهما: أهورامزدا وهو إله للخير، والآخر: أهريمان وهو إله للشر، ولها كتاب مقدس عند أتباعها اسمه الأبتاق.

[٩] انظر: شاهين مكاربوس: تاريخ إيران، ص ٢٢١-٢٢٤.

[١٠] انظر: أبو الحسن الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ٤٤، ٤٥.

[١١] ول ديورانت: قصة الحضارة ٢/٤٤١.

[12] Historian's History of the World V. 8. P. 84.

[١٣] الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٢/١٧٨، ١٨١.

[١٤] هوثن سوثنج (يوان تشوانج): رحالة صيني من مدينة تشانجان الصينية، أشهر البوذيين الصينيين زار الهند في القرن السابع الميلادي.

[١٥] آرثر كريستنسن: إيران في عهد الساسانيين ص ٤٣.

[١٦] ماني: هو راهب بحران، ظهر في زمن الملك الفارسي سابور بن أردشير، أحدث دينًا بين المجوسية والنصرانية، فسمى ديانتته بالمانوية، وهي ديانة ترى أن العالم مركب من أصليين وهما نور والظلمة، وأن كليهما غير متناه إلا من الجهة التي لاقى منها الآخر. وقتله بهرام بن هرمز. انظر: ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل ١/٣٧.

[١٧] بهرام الأول (٢٧٣-٢٧٦ م): ملك من ملوك الدولة الساسانية الفارسية، قام بقتل ماني مؤسس الديانة المانوية.

[١٨] ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل ١/٣٧.

[١٩] أبو الحسن الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ٤١.

[٢٠] مزدك: فيلسوف فارسي معروف، ظهر في أيام كسرى قباد والد أنوشروان (٤٨٨-٥١٣ م)، ودعا قباد إلى مذهبه فأجابه، واطلغ أنوشروان على افتراءه فطلبه فقتله، وكان قد أحل النساء وأباح الأموال، وجعل الناس شركاء فيهما.

[٢١] عبد القاهر البغدادي: عالم متفنن من أئمة الأصول، كان صدر الإسلام في عصره، ولد ونشأ في بغداد، ورحل إلى خراسان فاستقر في نيسابور، كان يُدرّس في سبعة عشر فنًا، وكان ذا ثروة، من مؤلفاته: أصول الدين، والناسخ والمنسوخ، والملل والنحل، والفرق بين الفرق، توفي سنة (٤٢٩ هـ=١٠٣٧ م). السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ٥/١٣٦-٤٨٨.

[٢٢] عبد القاهر البغدادي: الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية ص ٢٥.

[٢٣] قباد بن فيروز: من ملوك الساسانيين، حكم ثلاثًا وأربعين سنة (٤٨٨-٥٣١ م)، وحارب مملكة الخرز في مواقع فاصلة، وحارب الروم أيضًا، وكان قد أظهر الزندقة تأثيرًا بمزدك.

[٢٤] الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٢/٩٢، ٩٣.

[٢٥] آرثر برني في كتابه فن الحرب (Arthur birnie: The Art of War)، نقلًا عن العقاد: عبقرية خالد ص ١٣٥.

[٢٦] آرثر كريستنسن: إيران في عهد الساسانيين ص ٢٠٠.

[٢٧] الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٣/٥٠٥، وابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ٤/١٦٤.

[٢٨] سابور الثاني (٣٠٩ - ٣٧٩ م): من أشهر حكام الإمبراطورية الفارسية في عهد حكم الساسانيين، يُعرف بذي الأكتاف أو سابور الكبير، حيث بلغت إمبراطوريته ما لم تبلغه غيرها.

[٢٩] أردشير الثاني: إمبراطور فارسي (٣٧٩ - ٣٨٣ م)، من الحكام الساسانيين.

[30] La bourt, le chrisianisme dans l'empire perse sous la dynastie sassanide, paris 1904, pp.45, 53, 78.

[٣١] يزجرد الأول: إمبراطور فارسي (٣٩٩ - ٤٢٠ م)، من الملوك الساسانيين، وهو من مكّن للمسيحيين أن يجهروا بعبادتهم في بلاده ومن إعادة كنائسهم، إلا أنه انقلب عليهم نصرًا للمجوس على المسيحيين.

[٣٢] بهرام الخامس: إمبراطور فارسي (٤٢٠ - ٤٣٨ م)، من الملوك الساسانيين، هو أحد أكثر الملوك الساسانيين المشهورين، وبطل العديد من الأساطير، التي تُسمّيه بالعدل والشجاعة، إلا أنه مارس سياسة قاسية تجاه الأقليات الدينية في دولته وخاصة المسيحية.

[٣٣] آرثر كريستنسن: إيران في عهد الساسانيين ص ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٩٨، ٢٩٩.

[٣٤] ماجد اللحام: معجم المعارك الحربية ص ١٤٠.

[٣٥] المصدر السابق نفسه ص ٣٠٠.

[٣٦] المصدر السابق نفسه ص ٢٧.

[٣٧] الأبله: بلدة على شاطئ دجلة البصرة العظمى في زاوية الخليج الذي يدخل إلى مدينة البصرة، وهي أقدم من البصرة، وكانت الأبله حينئذ

مدينة فيها مسالح من قبل كسرى. ياقوت الحموي: معجم البلدان ١٧٧.

- [٣٨] ذات السلاسل (موقعة الأبله): وقعت في شهر المحرم عام ١٨هـ، وكانت بين المسلمين والفرس، وكان المسلمون بقيادة خالد بن الوليد رضي الله عنه وعددهم ١٨ ألفاً، وكان الفرس بقيادة هرمز وعددهم ١٢٠ ألفاً، تاريخ ابن خلدون ٢/٥٠٧.
- [٣٩] تاريخ ابن خلدون ٢/٥٠٨، وانظر: الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٣/٣٤٨، وفي تاريخ الطبري في وقعة نهاوند: خرجت الأعاجم قد شدوا أنفسهم بالسلاسل لئلا يفروا. انظر: الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٤/١١٦، وابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ٤/٢٦٩، وذكر أن الفرس في فتح أصبهان "تسلسلوا كل عشرة في سلسلة، وكل خمسة وكل ثلاثة". تاريخ الرسل والملوك ٤/١٤٣.
- [٤٠] دخل من الروم في معركة اليرموك ثلاثون ألفاً في السلاسل، كل عشرة في سلسلة لئلا يفروا. انظر: ابن عساکر: تاريخ دمشق ١٥٠/٢، والكلاعي: الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم والثلاثة الخلفاء ٢/٨٣، وابن كثير: البداية والنهاية ١٠/٧.

قصة الإسلام

المصادر: